على هامش (دراسات عن المقدمة) :

رأي ابن خلدون عند الحصري

للأستاذ محمـــد سليم الرشدان

— ١ —

كتب الأستاذ أبو خلدون (ساطع الحصري بك) في العددين (٨١٩ و ٨٢٠) من الرسالة الزاهرة ، بحثاً فيما أورده جواباً على سؤال تقدم به إليه الأستاذ الكبير (صاحب الرسالة) وكان مؤداه : « هل الشقاق طبع في العرب ؟ » . وقد تطرق الأستاذ الحصري في جوابه إلى الحديث عن ابن خلدون وعن رأيه في العرب الذي جاء في مقدمة تاريخه . ثم تدرج من خلال ذلك إلى الحديث عن كتابه (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) واستشهد من هذه الدراسات (بنموذجين من البراهين المسرودة فيها) . كان أحدهما من القسم الأول عن المقدمة ، والثاني من القسم الأخير منها .

فأغراني حديث الأستاذ هناك أن أصطحب (دراساته) تلك ، لأجلوها شغل فراغي في المصيف الذي جنحت إليه ، فكانت خير مشغلة ، وكانت نعم الرفيق . وهأنذا أتقدم بهذه الكلمة التواضعة ، تعليقاً على هامش تلك (الدراسات) فأقول :

لقد كان الوازع الذي حفز الأستاذ الحصري لإصدار هذا الكتاب — كما أحسست من دراسته — أنه أعجب بابن خلدون إعجاباً جعله يتكئ باسمه ، ولذلك يدافع عنه في رد هذا المأخذ الذي أخذه الناس عليه من رأيه (في العرب) . ولقد حاول جهد طاقته أن يظهره بمظهر الحدب الشفيق ، وأن يلبس أقواله زخرفاً يخفف معه كثيراً من هذه الأشواك التي يلمسها (ناتئة وخازة) كل من ينصرف إلى دراسة آراء هذا المؤرخ الفاضل في الأمة العربية منذ أقدم أزمانها إلى أيامه .

وإنك لتجد الأستاذ الحصري في (دراساته) يبذل غاية الجهد في هذا السبيل . فهو لا يدع حجة تلوح له من قريب أو بعيد إلا ساقها . فيستشهد بنص يورده كاتب فرنسي كما يشير إلى آخر يورده كاتب تركي . ويقبل بعد هذا على كلام المؤرخ يستقرئه حيناً ، ويحمله فوق ما يحتمل أحايين . ثم لا يقف عند هذا الحد ، بل يلجأ إلى كلام تواطأت عليه العامة ، فيدور حوله طويلاً حتى يكاد يبرزه بين معظم هذه السطور التي أعدها للدفاع عن ابن خلدون . وهأنذا أسوق للقارئ الكريم طرفاً من دفاعه ، وأظهر مبلغ تساوقه مع الحقيقة ، مستشهداً — ما وسعني المقام — في استجلاء ما أشكل وانبهم ، بكلام المؤرخ نفسه كما أورده في مقدمته .

يقول الأستاذ الحصري عن كلمة العرب عند ابن خلدون ما يلي :

« إن كلمة العرب في مقدمة ابن خلدون من الكلمات التي ولدت أغرب الالتباسات وأنتجت أسوأ النتائج . ذلك لأن ابن خلدون استعمل الكلمة المذكورة بمعنى البدو والأعراب ، خلافاً للمعنى الذي نفهمه منها الآن ، كما يتبين من الدلائل والقرائن الكثيرة المبثثة في جميع أقسام المقدمة ... (١) »

ويتحدث بعد هذا طويلاً عن دحضه أقوال الكثير ممن تحاملوا على ابن خلدون بسبب خطئهم في فهم ما يقصده من كلمة (العرب) . ومن هؤلاء — على حد تعبيره — مدير المعارف العراقية الذي دعا إلى « حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية ، زاعماً أنه من الكافرين بالعروبة ... (٢) »

ثم يورد بعد ذلك ما يذكره علماء اللغة في تعريف كلمتي (العرب والأعراب) فيعقب عليه بقوله : « يظهر من ذلك أن مدلول كلمة العرب تطور تطوراً كبيراً خلال أدوار التاريخ . ويمكننا أن نعين اتجاه هذا التطور بالصفات الثلاث التالية :

أولاً : كان مدلول كلمة العرب يختص بالبدو وحدهم .

ثانياً : صار يشمل هذا المدلول من يسكن المدن والأمصار من غير أن يقطع صلاته بالبادية ...

ثالثاً : (وهنا موضع الشاهد) صار يشمل مدلول كلمة العرب سكنة الأمصار أيضاً ، بقطع النظر عن صلاتهم بالبادية ، أو رجوع نسبهم إلى البادية ... (٣) »

وهكذا يحدد الحصري مدلول هذه الكلمة في صفات ثلاث

(١) ص ١٠٧ س ٣ ج ١ من كتاب (دراسات ..)
(٢) دراسات ص ص ١٠٧ س ١٤ ج ١
(٣) ص ١٠٨ س ١٥ ج ١

تطورت — كما يقول — مع أدوار التاريخ . ودعني أيها القارئ الكريم أقف بك عند كل واحدة منها ، مبتدئاً - حسب الترتيب الذي سار عليه — بالأولى حيث يقول : « كان مدلول كلمة العرب يختص بالبدو وحدهم . . » و (كان) هذه تحتمل من الإمكان ما نعيدها معه إلى إبان صدر الإسلام وما قبله ، حيث جعلها الأستاذ بداية التطور خلال أدوار التاريخ . ولو تساءلنا على ضوء هذا التحديد ، عما إذا ورد في القرآن الكريم — وهو قاموس العربية — ما يؤيد قول الحصري ! لألفينا الجواب بأن القرآن الكريم لم يخصص كلمة (العرب) للبدو ، وإنما خصص لهم غيرها حيث يقول : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً [١]) و (قالت الأعراب آمنا ... [٢]) . وهذا النبي صلوات الله عليه يقول : « ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ... [٣] » وما أظنه يقصد بالعربي (هنا) من كان مقيما في البادية دون سواه ! وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول يوم السقيفة : « نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً — وأكثر الناس ولادة في العرب ... » وهو يقصد بالعرب أهل (مكة) . وهي حاضرة الجزيرة يومذاك .

وبما أن الأستاذ الحصري لم يحدد زمناً يربط به تطور مدلول هذه الكلمة ، فالاعتراض عليه لا يتجاوز حد الافتراض . ولذلك فإننا نقف بهذا الذي أوردناه إلى جانب أول وصف لمدلول هذه الكلمة عنده ، ثم نترك للقارئ الكريم الحكم عليها . ونتنقل إلى الصفة الثانية فنجده يقول فيها : « سار يشمل هذا المدلول من يسكن المدن والأمصار من غير أن يقطع صلاته بالبادية . . » ولا أظنه يقف ابن خلدون عند هذا التعريف . وإنه لو فعل ذلك لأقام الدليل بنفسه على بطلان ما يقوله في دفاعه عنه . ولأثبت عندئذ أن ابن خلدون إنما قصد أهل الأمصار من العرب بقوله ، وهو عكس ما يريده ويبتغيه . . إذن فلم يبق أمامنا غير التعريف الثالث ، وهو الذي يقول فيه : أن مدلول كلمة العرب « سار يشمل . . سكنة الأمصار بقطع النظر عن صلاتهم بالبادية . . » وفي هذا الوصف ثالثة الأثافي ! فهو إن كان قد تطور خلال أدوار التاريخ ، فلا بد من أن يكون قد عاصر ابن خلدون أو تقدم عنه أو جاء بعده . فإن كانت الأولى أو الثانية ، فقد جعل قوله حجة عليه ، ولم تبق هنالك حاجة لإقامة برهان . وإن كانت الثالثة ، فقد أنطق ابن خلدون بالغيب ، وجعله يتحدث بلسان الزمن قبل أن يجيء . وهيهات أن يكون ذلك كذلك ؟!

وإليك أيها القارئ ما يجيبنا به الأستاذ على كل ما تقدم حين يقول : « ومما تجب ملاحظته أن هذا التطور لم يكن تاماً ولا قاطعاً . . لأن الطور الأول لا يزال مستمراً في استعمال العوام . . فقد سود الناس في جميع البلاد العربية استعمال كلمة (العرب) بمعنى البدوي والفلاح ... [١] »

ولا أدري كيف (تطور تطوراً كبيراً خلال أدوار التاريخ) ثم نجد تطوره بعد ذلك (لم يكن تاماً ولا قاطعاً) !! بل يستمر الطور الأول منه في استعمال العوام إلى يوم الناس هذا !! وإنه ليلذ لي أن أتساءل في هذا المقام : لماذا لم يظهر مثل هذا الالتباس في مدلول كلمة العرب على أقلام المؤرخين ممن سبق ابن خلدون أو تأخر عنه ؟ ! ولماذا لم يظهر كذلك في شعر الشعراء ممن تقدموه أو عاصروه ، ما دام هذا هو مدلول الكلمة منذ طورها الأول الذي كان في بداية أدوار التاريخ ؟ !

ويورد الحصري بعد ذلك — تأييداً لابن خلدون — مثلاً شعبياً كثيراً ما تلوكه ألسنة العامة من أهل الحواضر ، فيوردونه شاهداً على فساد ذوق البدوي ، وهو قولهم : « الكل عند العرب صابون ... » وأشهد لقد سمعته كثيراً ولكن بتحريف بسيط ، فذكرني بـ (غير عزيز !) ، وأعاد للنفس ذكريات مفزعة من الماضي الرهيب الذي توالى على الأمة العربية فصبرت عليه صبر الجبال ... أجل لقد سمعت هذا القول كما سمعه الحصري فذكرني بشيء غاب عنه تذكره ، ذكرني بذلك الاستعباد الطويل الذي تقلبت هذه الأمة بشتى مطارفه ، يوم كان العربي في حاضرته يضطر — كارهاً أو مختاراً — أن يتشبه بذلك المتسلط القاهر فيحاكيه في عجمته ، وعائله في برته . يوم كان الملج في عنجهيته يقف أمام هؤلاء الأعراب الذين يردون الحواضر ، فيتأذى بصره المترف برؤية شفاههم البادي من ذوق أسمالهم ، فلا يجد شقيمة يحقرهم بها ، فتوصل إلى قرارة نفسه الرضوان ، أكثر من أن

(١) من التوبة آية ٩٧ (٢) من الحجرات آية ١٤
(٣) من خطبته في حجة الوداع

(١) الجزء الأول من كتاب (دراسات ..) ص ١٠٩ س ٣

يردد على ملأ منهم قائلا : « عرب ! عرب ! » .

وإن كنت فى ريب من ذلك فسل من شئت : هل عسيت إن شاكلك رجل من أهل هذه الديار فكر حتى بلغ منك ما تكره ثم أردت أن تثأر لنفسك منه ، فهل رأيتك تتمتم بأكثر من أن تقول له : « فلاح ! فلاح ! » إلا أن هذه قرينة تلك ، وكلتاهما مما خلفته لنا عصور الاستعباد الطويل ، وتلقفناه عن أفواه أولئك المستعبدين ، بمعان يورد الأستاذ الحصرى هذا الشاهد يعلق عليه طويلا ويتحدث عن مبلغ تفشيه بين العامة فى شتى الأقطار ، وهذا أمر سلمنا له به ، ولعل فى ردنا عليه الكفاية . ثم ينتقل إلى الاستشهاد بأقوال كبار المؤرخين والباحثين ، ملتمساً فى ذلك ما يقوله شاهداً على صواب ما يورد . وإنى أتناول واحداً من هذه الأقوال الكثيرة ، فأتخذه شاهداً على عكس ما يقول ، وأؤكد له أن (الثعالبى والقالى وابن السكيت وابن الأثير) وغيرهم ممن استشهد بهم ، لم يخرجوا قيد أنملة عما تآلف عليه الناس منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم . إنهم حين لا يفرقون بين بادٍ وحاضر يقولون : (عرباً) وإذا ما أرادوا أهل البادية دون سواهم قالوا : (أعرابياً) أو (بدوياً) . وهذا نص يورده الأستاذ يؤيدنى على ذلك ، وهو قوله : « وإننا نجد فى المثل السائر .. لابن الأثير .. ما يلى : (فإن قيل إن ذلك البدوى كان له ذلك طبعاً وخليقة ... فالجواب على ذلك أنى أقول : إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فإنا نقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب[1]

أرأيت كيف يقفك عند قوله : (البدوى) حين أراده قبل أن يهجر باديته ، ثم يطلقها بعد ذلك حين لا يريد مثل هذا التحديد؟!

وليت شعرى كيف يرتضى الأستاذ الحصرى أن (يحصر) مثل هذا العدد الوافر من كرام المؤرخين ، وأن (يحصر) نفسه أيضاً فى حدود هذه الدائرة الضيقة حين يؤكد أنهم أرادوا جميعاً بقولهم (العرب) أهل البادية فقط ؟! وبماذا سموا إذن — لله أبوهم — أهل الحواضر من عرب الشام والحجاز ومصر والعراق والمغرب والأندلس ؟! هل قالوا حاضرى أم حضرى أم كيف ؟! لقد تمنيت أن أجد للأستاذ قولا مثل هذا ، فكنت أجد منه مولجاً للاعتراض ، ولكنه لم يقل بل ترك الأمر غامضاً ملتبساً ! وأن الأستاذ الحصرى بعد ذلك يتحدث عن ابن خلدون يتابؤكد (ما ذهبت إليه) غاية التأكيد . وذلك حين يقول : « لم يستعمل ابن خلدون فى المقدمة كلمة (الأعراب) و (الأعرابى) ، إلا قليلا جداً . فإنه قد استعمل كلمة (العرب) أو (العربى) فى نحو (٣٣٠) موضعاً ، فى حين أنه لم يستعمل كلمة (الأعراب والأعرابى) إلا فى بضعة مواضع ... [2] »

هو ذاك ! لأن الرجل أراد أن يسير على نهج زمانه ، وهو منهج كل زمان من أزمان العربية ، لذلك يطلق كلمة العرب على كل عربى من غير ما تخصيص ، ويخص أهل البادية — حين يريد أن يميزهم عن سواهم — بقوله : (الأعراب) . وهذا القرآن الكريم — وكان وما يزال (قرآناً عربياً غير ذى عوج) — وقف عند هذا التحديد بعينه ، وسار الناس بعد ذلك على منهاجه

و (أرى) أن ابن خلدون ما تجاوز ذلك إلى سواه . .

ويأخذ الأستاذ الحصرى بعد هذا فى اقتباس الشواهد من المقدمة ، للتدليل على ماذهب إليه ، فيقول : « لنبدأ من الفصل الذى يتضمن أقسى الأحكام وأعنف الحملات على (العرب) . فلنلاحظ الفصل الذى يقول فيه ابن خلدون : « إن العرب إذا ما تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » ، ولننعم النظر فى الأدلة التى يذكرها لتعليل وتأييد رأيه هذا : (فنهاية الأحوال البادية كلها عندهم الرحلة والتنقل ... فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لتنصيب أثافى القدر ، فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ... والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليسمروا به خيامهم ...) ومن البديهى أن مدار البحث هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام ، فلا مجال للشك فى أن ابن خلدون عند ما كتب هذه العبارات لم يفكر قط بأهل دمشق أو القاهرة ... بل إنما قصد أعراب البادية وحدهم ... [3] »

والذى أقوله ، ويقوله ذلك الفصل بعينه ، بخلاف ما أورده الأستاذ الحصرى ، ويؤكد أن ابن خلدون أراد البدو وغير البدو ، وأقول بتعبير آخر : إنه أراد العرب على اختلاف مشاربهم . وتبين ذلك من قوله الذى يكمل به ذلك الفصل بعينه . فهو يقول بعد الكلام الذى استشهد به الحصرى (مباشرة) ما يلى : « فهم متنافسون فى الرئاسة ، فيتعدد الحكام منهم والأمراء ، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقض ،

(١) الدراسات ج ١ ص ١١١ س ١٤

(١) الدراسات ج ١ ص ١١٣ س ٣

(٢) الدراسات ج ١ ص ١١٣ س ١٢

وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان ، كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه ، فاليمن قراهم خراب ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك وأفريقية والمغرب[1] » . فهل تتبين من ذلك كله أنهم البدو فقط ؟ ! وإذا كان الذين عمروا اليمن والشام والعراق وأفريقية والمغرب هم (البدو) ، فمن هم (العرب) إذن ؟ ! ثم يخطو الأستاذ الحصرى بعد ذلك خطوة لا تخلو من تعسف ، وهى أنه يصدر بحكم مبرم مؤداه أن ابن خلدون لم يقصد بقوله (العرب) فى سائر فصول المقدمة غير (البدو) ، ولم يتجاوز ذلك إلى غيره قط . فيورد هذا أن يقول : « إن ابن خلدون لم يستعمل كلمة (العرب) بمعنى البدو فى فصول الباب التى ذكرتها فحسب ، بل استعملها على نفس المنوال فى فصول الأبواب الأخرى أيضاً[2] » .

وهكذا يجعلنا الأستاذ فى حل ، لنلتمس ما يناقض دفاعه (فى سائر الفصول) ، بعد أن أكد — كما رأيت — أن ابن خلدون لم يقصد بقوله (العرب) فى سائر الفصول سوى البدو وليس غيرا ويستشهد بعد هنا ببعض كلام ابن خلدون مقدماً له بما يأتى : « يوجد فى الباب الرابع أيضاً فصل خاص بالعرب ، وهو الفصل الذى يقرر : (أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل)[3] » . ثم يأتى على ذكر ما قاله ابن خلدون عن العرب فى هذا الباب فيقول : « والعرب إنما يراعون مراعى إبلهم خاصة ، ولا يبالون بالماء طاب أو خبث ... ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية ، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات[4] » .

ويعلق على ما سلف بما يلى : « يظهر من ذلك بكل وضوح أن العرب المقصودين فى هذا الفصل هم البدو الذين يعيشون فى القفار ولا يوجد فى هذا الفصل كلمة واحدة تنطبق على أهل الأمصار[5] »

وفى هذا المقام أيضاً استشهد من الفصل عينه ، مؤكداً أن فى هذا الفصل أكثر من (كلمة واحدة) تنطبق على العرب الأولين الذين خرجوا من الحجاز واليمن ، من مكة والمدينة والطائف وصنعاء وظفار وغيرها (وهى أمصار كلها !) بل خرجوا جميعاً من مدرسة محمد (ص) بعد أن قذف فى قلوبهم هذا الإيمان الراسخ ، فإذا هم يعلمون الحضارة لأهل الحضارة .

أجل ، تنطبق على هؤلاء جميعهم ، ويتضح ذلك مباشرة بعد آخر كلمة يوردها الأستاذ الحصرى فى النص الذى استشهد به من كلام ابن خلدون ، وذلك حين يقول : « وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان ، فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس[1] » .

ألا ترى — يا أخى القارئ — صدق ما أشرت إليه من خلال هذا النص الذى (بُتر) أوله ليؤدى معنى غير معناه الذى أراده له صاحبه ؟ ! وهل اختط الكوفة والبصرة والقيروان إلا رجال أفذاذ من أقران (عمر ومعاوية وابن العاص) وغيرهم ممن ساسوا البدو والحضر فأحكموا السياسة ؟ !

ثم يتدرج الأستاذ الحصرى بعد كلام طويل إلى قوله : « ومما يزيد الأمر وضوحاً وقطعية أن ابن خلدون يعود إلى هذه القضية (أى أن العرب بمعنى البدو) فى بحث العلوم أيضاً ، إذ يقول بعد أن يشبه العلوم بالصنائع :(وقد كنا قدمنا أن الصنائع من مستحدثات الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، وصارت العلوم لذلك — حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها) ... يلاحظ أن ابن خلدون يذكر هنا كلمة (العرب) مرتين مقابلا لكلمة (الحضر) بشكل لا يترك مجالا للشك فى أنه يقصد منها (البدو)[2] » .

والذى أقوله : إن كلام ابن خلدون لا يدع مجالا للشك فيما يقصد . ويوضح لنا فى كلمات قلائل (ما استشهد به الأستاذ الحصرى) ما يقصده من الكلمتين (العرب والحضر) . وهأنذا أورد قوله ليتضح وجه الصواب : « والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف[3] » .

أرأيت كيف كان يقصد بقوله (الحضر) غير العرب ، وأن العرب لديه هم العرب سواء سكنوا البادية أم الحاضرة ؟ !

ولما كان المقام لا يتسع لمناقشة جميع الشواهد التى أوردها الأستاذ الحصرى من كلام ابن خلدون ، لذلك أكتفى بهذا القدار الذى أوردته منها ، ملمحاً إلى أن جميع ما جاء فى هذا الصدد

(١) المقدمة مط مصطفى محمد سنة ١١ ص ١٥٠ س ١٦
(٢) دراسات ج ١ ص ١١٤ س ٨
(٣ ، ٤) دراسات ج ١ ص ١١٥ س ١٢ ، ١٨
(٥) دراسات ج ١ ص ١١٥ س ٢١

(١) المقدمة الطبعة السابقة ص ٣٥٩ س ١٢
(٢) دراسات ص ١١٦ س ١٩ ج ١ ط بيروت
(٣) المقدمة ص ٥٤٤ س ٧